ثم ما ضر بعض الاغنياء الذين يجمعون المال اكداساً فوق اكداس ويخزن الواحد منهم دنانيره حتى تصير اكياساً على اكياس فلا انفقها على نفسه فاستفاد منها ولا احسن بها على احد فافاد الناس لو اجرى بعضها في سبيل الاعمال وابا حها موارد اشغال له وللعاملين وباباً للمكاسب والرزق الحلال وشارك امثاله في نعمة الله عليه فاكسبهم ولم يخسر وكان له الفضل في كل حال

أو لم ير الاغنياء عندنا ما صارت اليه حالة اوربا في هذه الايام وما نراه في اغنيائها وفقرائها عبرة لنا وذكرى بين فوضوية تثور واشتراكية تدور ونسف منازل كان الفقر من ناسفيها واهلاك نفوس ذهبت شهيدة ظلم الاغنياء ويأس قاتليها فان الفقر قد سرى في الدنيا حتى بلغ بها الى الدنايا واليأس قد خامر قلوب رجالها حتى اصبحوا لا يهابون المنايا فما نجد من مصيبة ولا خطب الا كان داعيها الفقر والفقر رأس البلايا فليتق الله من يمسك امواله في سبيل العامل الذليل ولتكن في قلوب بعض الناس رحمة للمساكين واليتامى وابن السبيل فانا نخاف ان تزيد اعمالهم فتجر الينا بلاء سوانا وان تبرق في شرقنا صاعقة قنوط جديد وما عندنا قد كفانا فان فضلة الغني لا تضره وتنفع الفقير نفعاً جلالا ورحم الله عبداً علم فعمل والله لا يضيع اجر من احسن عملا

المرأة والضمير والتربية

﴿ لحضرة الكاتب الاديب حبيب افندي صوابيني ﴾

الامر الذي كلت عن ادارته عقول الفلاسفة المتقدمين وافهامهم ولم يزل مسدولا دونه حجاب الوهم على كثرة البحث به والتنقيب عن مصدره هو « الضمير » الذي ما زال العلماء يعرفونه بغير حقيقته وذلك لسببين احدهما الجهل به وثانيهما لان بعض العلماء الذين يسمون قادة القلوب قد اتخذوه آلة لتنفيذ مآربهم

وقد اتينا بهذه المقالة لنضرب هذا الحجاب بسيف من الحقيقة غايته اظهار الحق ورفع غشاء الجهل عن العيون . وما لنا غاية في ذلك الا التنبيه الى امر ما زالت حجب الوهم مسدولة دونه مع ما وصلت اليه العلوم في هذه الايام

وليس لنا سيف من الحقيقة امضى من اتخاذ المرأة نصالاً لهذا السيف لانها هي سيف الحق القاطع الذي لا ينبو

ولا تعجب ايها القارئ من اتخاذ ذات القوام الرطيب والدلال المذيب سيفاً لخرق حجب كلت عن خرقها سيوف العلم . فان عند جهينة الخبر اليقين

اذا اقسمت بالله باطلاً فانك تشعر بان شيئاً داخلياً يوبخك على ذلك ولكنك لا تعرف ما هذا الشيء بل تعلم ان ضميرك يوبخك ولكن ما هذا الضمير واين هو وما مصدره ؟ هذه هي النقطة التي حيرت افهام الفلاسفة

وضربت دونها حجب الوهم وجعلت في كتب علمهم صحيفة بياض لم تكتب فكان ذلك اعظم نقص يلامون عليه . هذه هي الحلقة التي منعت سلسلة علمهم ان تتصل وجعلت لها طرفين يستعان بها على فلسفتهم

زيد اعتاد تكريم الكتب المقدسة وتكريمها وعمرو لا يعرف هذه الكتب ولا يحترمها وهو يكرس حجراً منحوتاً ويكرمه . ذاك حرم عليه قتل بني البشر واكل لحومهم وهذا ليس ما يمنعه عن ذلك بل يرى انه اتى حسنة ان فعل . فما هذا الاختلاف وما هذا التناقض . اذا مر زيد على ورقة وداسها ثم نظر اليها فرآها مقطوعة من كتاب مقدس وهو لا يدري اخذ يلوم ذاته على عدم انتباهه ويرى ان شيئاً في داخله يوبخه على ذلك ثم يمر على صنم فيدوسه ولا يبالي واما عمرو فانه يستشنع ان يمر بالقرب من الصنم دون ان يسجد له وقد يمر على عدة كتب مقدسة مطروحة في الارض فيدوسها ولا يرى فيما يفعله ما يستوجب التوبيخ عليه فما هذا الفرق العظيم؟

يجب علينا قبل ان ندخل في شرح هذا الامر ان نتكلم قليلاً عن العقل واجزاء الجسم ليتسنى للقاريء ان يصل الى الغاية المقصودة

رجح العلم ان للعقل مركزاً في الدماغ وان له اجزاء مشتركة في الخاصية ولكل جزء وظيفة يجريها . وفي الدماغ ايضاً خزانة لحفظ الحوادث وتحضيرها للعقل حين احتياجه اليها وهو يرسل امره الى اجزاء الجسم على اعصابه فيؤثر فيها ويجعلها اما ان تنقبض وتتقلص او تسر وتبتهج والجزء الذي له الاهمية العظمى في ذلك وهو سلطان الاجزاء وسيدها القلب لانها كلها تستمد احتياجاتها منه فاذا انقبض وتقلص شاركته في ذلك وان سر وابتهج كانت تابعة له في سروره وان وقف عن اجراء وظيفته تعطلت جميع ادواتها

وجميع ما يطرأ على حواس الجسم الخمس يرسل اولاً الى العقل عن طريق الدماغ فيعرضه على خزانة الحوادث ويفحصه فان كان محزناً او مفرحاً او مخيفاً يرسله الى القلب فيؤثر به على الحالة التي تستوجبه فتحدث في النفس احدى الحالات المار ذكرها ويشترك مع القلب في بعض حالاته بقية الاجزاء وكل ذلك يتم في اقل من لحظة واحدة

قدمنا كل هذا لنعلم ما هو الضمير واين مركزه ولسنا معتمدين في ذلك الا على الفكر وحده دون ان نستعين بكتاب ما لان الكتب خالية من هذه المباحث وان كان بها شيء منها فكون الاراء فيه متضاربة

قل لنا ايها القاريء اللبيب ما استنتجت من ذلك واين الضمير وما منشأه ؟ اجل ان الموقف حرج والانسان لا يستطيع اظهار ما يصل اليه فكره في امور كهذه ولكننا نحن نخفف عليك ذلك ونشرحه باختصار مع التلميح في الاشياء التي لا يمكننا شرحها لئلا يؤوّل قولنا بغير المقصود منه

الضمير هو زهرة يربيها المربي في الطفل بخزانة ذاكرته وحوادثه وهذه الزهرة اما ان تكون ذات رائحة زكية ظاهرة او خبيثة فاسدة او غير ذلك فيأخذ العقل منها خطة يألفها وتكون دستوراً له يسن عليه اوامره التي يصدرها الى بقية اجزاء الجسم وهذه الزهرة تربى في الصغر فتتخذ لها المقام الاول في خزانة المحفوظات ويكون لها النفوذ الاعلى في مجلس العقل حتى انه اذا فعل ما يخالف طبيعتها ندم على ما فرط منه فيشعر القلب بهذا الندم فيحزن وتشاركه في ذلك النفس مع بعض الاعضاء

بقي علينا ان نعلم من المربي لهذا الضمير او الزهرة . اننا نحتاج هنا الى ذلك السيف لشق حجب الجهل وهو المرأة . فالمرأة هي التي تربي هذه الزهرة

في ولدها وهو بمهد الطفولية وخزانة حوادثه فارغة تنتظر ساكناً يسكنها فتتخذ هذه الزهرة المكان الاحسن وتسكنه وتنازع كل ما يطلب مضايقتها فيه . المرأة هي التي تعطي لهذه الزهرة خواصها . المرأة هي التي تجعل رائحتها زكية او فاسدة . المرأة هي مدبرة العقل ومرشدته

لا يستغرب القارئ من نسبة كل هذه الامور الى المرأة بل يتدبر فيما ذكرناه ليعلم السبب في ذلك . ولا بأس من زيادة الايضاح في هذا الباب فان المرأة الفاضلة ترضع طفلها حب الصلاح والفضيلة وبذلك تنمي في خزانة حوادثه زهرة زكية الرائحة فينشأ المرء على حب ما يوافق هذه الزهرة ويلائمها ويبتعد عن كلما يخالفها فان اتى ذلك على قصد منه او بقصد تنبهه رائحتها الى ذلك فيندم على ما فرط منه . ولكن اذا كانت المرأة فاسدة كانت رائحة الزهرة كذلك وينشأ الفتى موافقاً لها ولا ضمير له ليوبخه على اتيان القبيح وفعله . اما المرأة الجاهلة فانها لا تعلم ما تفعله مع طفلها فتنشأ هذه الزهرة موافقة للحالة التي يرى فيها المرء . خذ لك مثلاً على ذلك . ان ليلى كانت تقص دائماً لطفلها قصصاً خرافية مخيفة فنشأ الطفل ثم ارسل الى المدارس لتربيته وبعد خروجه منها اتفق انه مرّ يوماً وهو شاب في الليل بمكان مخيف موافق لما كانت تقصه عليه والدته في طفوليته فلا بد من ارتعاد فرائصه في ذلك المكان مهما اجتهد المهذبون لنزع ذلك منه في المدارس وسواها ومثل ذلك اذا كانت المرأة قد ربت طفلها على الجراءة والشراهة او حب الذات . واذا كانت فاضلة ولكنها جاهلة فانها لا تعلم ما يكون به مصلحة طفلها فتعلمه ما يضره من حيث لا تدري فيكون ضميره آفة عليه . واما اذا كانت المرأة متعلمة فاضلة فانها تنشئ في طفلها ضميراً حسناً وزهرة زكية الرائحة وهذه هي التي يحق لها ان

تجلس على كرسي الفضل والفضيلة في مجلس العظمة والاكرام وهي السيف الذي تضرب به حجب الوهم والضلال

واذا كانت هذه رتبة المرأة في عالم الفضيلة أيجوز بعد ذلك القول بعدم تعليمها ؟ لعمري ان من يقضي بذلك لهو في ضلال مبين

وان تقرر ذلك وجب علينا تعليم المرأة واصلاح حالها وترقية شؤونها وانماء روح الفضيلة فيها لتكون قادرة على اصلاح احوالنا واهلاً لان تسلم تلك الوظيفة التي تقدم ذكرها وتجلس على ذلك الكرسي الذي وهبته لها الطبيعة

تخيل شاعر

لك الخير نامي عن ملوم معذل ... وكفي والا تستطيعي فاحملي
اثرت هموم النفس من كل مكمن ... وهيجت احزان الفؤاد المبلبل
جهلت على من طال ماوي حلمه ... فالا تكفي غرب جهلك يجهل
تلومين ان امسى سواي ممولاً ... يبرك مثواه ولما اموّل
فاما تريني معدماً ذا خصاصة ... فاني لم اسأل ولم اتبذل
ابى ذاك نفس تأنف الضيم حرة ... متى ما تكلف خطة الهون تجفل
واحساب قوم دافعوا عن حريمها ... وصانوا حماها من اخير واول
بنوا لي صدر الدهر مجداً موثلاً ... شددت اواسيه بمجد موثل

* * *